ميلان كونديرا

الكتاب: إدوار والله
المؤلف: ميلان كونديرا
المترجم: معن عاقل

الطبعة الاولى 1999
دار آرام للثقافة والكتب

سورية - دمشق - هاتف 6816234-6316870
تلفاكس 6316870 - ص. ب 36130

الكمبيوتر والإشراف الفني: دار آرام

ميلان كونديرا

إدوار والله

ترجمة: معن عاقل

1

لنبدأ حكاية إدوار في المنزل الريفي لأخيه البكر، الذي كان متمدداً فوق الأريكة ويقول لإدوار:

- بوسعك أن تمضي لتعثر على تلك المرآة المسنّة دونما خوف. إنها عاهرة على نحو مؤكد، غير أني اعتقد أنه حتى هؤلاء الناس لديهم ضمير. ولأنها بالضبط قد لعبت دوراً قذراً ضدي فيما مضى، فقد يسرّها الآن، أن تسدي لك خدمة تكفيراً عن خطيئتها.

لم يزل شقيق إدوار على حاله: شخص طيب وكسول. ولا ريب أنه كان مستغرقاً على أريكته ـ كحاله

الآن- في سقيفة الدراسة، قبل بضع سنوات من الآن. يوم وفاة ستالين، الذي قضاه في منزله متكاسلاً مسترخياً لم يكن إدوار إلا صبياً بعد، وفي اليوم التالي ذهب إلى الكلية دون أن يساوره شك بشيء، فأبصر إحدى صديقاته، الرفيقة سيشاكوفا، تقف مأخوذة وسط القاعة، في جمود مهيب، شبيهة بتمثال من الألم، دار حول الفتاة ثلاث دورات ثم أطلق قهقهة مجلجلة. فما كان من الفتاة المهانة إلا أن وصفت هذه الضحكة بالتحريض السياسي فاضطر أخو إدوار إلى هجر دراسته والمضي للعمل في إحدى القرى، حيث امتلك فيها الآن منزلاً وكلباً وزوجة وطفلين، وحتى شاليه لقضاء أيام العطل.

وهاهو الآن متمدد فوق أريكته، في هذا المنزل الريفي، ويشرح لإدوار قائلاً:

- كانوا يسمونها ذراع الطبقة العاملة المنتقم، لكن ينبغي ألا يخيفك هذا. فهي امرأة ناضجة، اليوم، ومازالت ضعيفة أمام الشباب، ولا تتمالك نفسها، ولهذا ستساعدك.

كان إدوار شاباً في ذلك الوقت، وقد أنهى لتوه دراسته في الكلية -وهي الكلية ذاتها التي طرد منها أخوه- وراح يبحث عن عمل. وفي اليوم التالي جاء يطرق

مكتب المديرة، متبعاً نصيحة أخيه. فتبدت له امرأة طويلة، عظامها بارزة، ذات شعر أسود كثيف، وعينين سوداويين، مع زغب أسود تحت أنفها، أعفاه هذا القبح من الرهبة التي طالما كابدها، في يفاعته بحضور الجمال الأنثوي، حتى أنه استطاع أن يتحدث معها دونما ارتباك، وبكل اللطافة والتودد المستحبين.

أسعدت هذه النبرة المديرة بشكل جلي، فأكدت مراراً وبحماس شديد:

– نحن بحاجة إلى الشباب، هنا.

ووعدت إدوار أن تدعم ترشيحه.

2

وهكذا أصبح إدوار معلماً في مدينة صغيرة من بوهيميا. لم يشعر بالتعاسة من ذلك ولا بالسرور. كان يحاول دوماً أن يميز بين الجد واللاجد، فصنف مهنته كمعلم في فئة *اللاجد*، وهذا لا يعني أن مهنه التدريس في حد ذاتها كانت بلا أهمية- فضلاً عن أنه كان شديد التعلق بها، لأنه ما كان ليستطيع أن يكسب قوته بوسائل أخرى- بل كان يظنها تافهة بالنسبة إلى ذاته. لم يخترها. بل فرضها عليه المطلب الاجتماعي، وتقديرات دائرة الموظفين، ومصدقات الثانوية، ونتائج مسابقة القبول. لقد انتقل بتأثير اتحاد هذه القوى -مثل رافعة تقذف كيساً فوق شاحنة- من الثانوية إلى الكلية. فسجل فيها على مضض-كان إخفاق أخيه نذير شؤم-

لكنه انتهى إلى التسليم بالأمر. كان يدرك مع ذلك أن مهنته قد تكون في عداد مصادفات حياته. وأنها قد تلتصق ببشرته كما يلتصق شارب مستعار يحمل على الضحك.

لكن إذا كان الشيء *الإلزامي* هو شيء غير جدي ويحمل على الضحك فالجدية هي بلا شك الشيء *الاختياري*.

صادف إدوار في مقر إقامته الجديد بسرعة شابة وجدها جميلة وبدأ يكرس نفسه لها بجدية شبه مخلصة. كانت تدعى أليس، وكانت متحفظة وفاضلة، كما استطاع أن يقنعه بذلك حزنها منذ لقاءاتهما الأولى.

قام بمحاولات عديدة أثناء نزهاتهما المسائية، ليضم كتفيها بحيث يلمس من الخلف طرف نهدها الأيمن، وفي كل مرة كانت تمسك يده وتبعدها بغضب. لكن إدوار لم يكف عن ذلك، ففي ذات مساء حاول أن يلمس نهدها فصدته بحدة، ثم توقفت وقالت:

- هل تؤمن بالله؟.

سمعت أذنا إدوار المرهفتان في هذا السؤال إصراراً خفياً، ونسي النهد على الفور.

- هل تؤمن بالله؟

كررت أليس سؤالها، ولم يجرأ إدوار على الإجابة.

علينا ألا نلومه لأنه لم يمتلك الشجاعة على الصراحة فهو يشعر بأنه مهمل في هذه المدينة التي كان وافداً حديثاً إليها، وكانت أليس تروقه كثيراً حتى أنه خشي أن يفقد أنسها بإجابة بسيطة ووحيدة.

سأل لكسب الوقت:

- وأنت؟.

قالت أليس:

- أنا، نعم.

وألحت عليه من جديد كي يجيبها.

لم تكن قد خطرت على باله فكرة الإيمان بالله حتى الآن. لكنه فهم أن عليه ألا يبوح بذلك، بل على العكس تماماً، عليه أن يغتنم الفرصة ويجعل من إيمانه حصان طروادة الذي يمكنه أن يختبئ في جوفه -حسب المثل القديم- لكي يندس بعد ذلك خفية في قلب الفتاة. غير أن إدوار لم يكن بمقدوره أن يقول لأليس بكل بساطة: «أجل، أنا أؤمن بالله»؛ فهو ليس وقحاً، ويخجل أن يكذب؛ وينفره الكذب الساذج غير المتقن، وإذا كان لا مفرّ من الكذب، فعلى الأقل، كان يريد أن يبقيه أكثر شبهاً بالحقيقة فأجاب بصوت متأمل للغاية:

- لكن لا أدري يا أليس بما يجب علي أن أجيبك

على هذا السؤال. بالتأكيد، أؤمن بالله، لكن...

صمت، فنظرت إليه أليس بعينيين مندهشتين...

لكنه بعد قليل أضاف:

- لكنني أود أن أكون صريحاً معك تماماً، فهل يمكنني أن أكون صريحاً معك تماماً؟.

قالت أليس:

- لابد من ذلك. فلولا الصراحة، لما كان لدينا شيء نفعله سوية.

- حقاً؟.

قالت أليس :

- حقاً.

قال إدوار بصوت خفيض:

- تراودني الشكوك أحياناً. فأتساءل إن كان الله موجوداً فعلاً، أم ...

قالت أليس وهي تصرخ تقريباً:

- لكن كيف يسعك أن تشك بذلك؟.

سكت إدوار، وبعد لحظة تفكير خطرت على باله الحجة التقليدية فقال:

– حين أرى هذا القدر من البؤس حولي، أتساءل غالباً إن كان يمكن أن يوجد إله يسمح بكل هذا.

تكلم بصوت حزين جداً حتى إن أليس أمسكت يده وقالت:

– أجل، هذا صحيح، هنالك الكثير من البؤس هنا على الأرض. أعرف ذلك حق المعرفة. إلا أنه لهذا السبب بالضبط يجب الإيمان بالله. فلولاه، لكان كل هذا الألم دون جدوى، ولما كان لأي شيء معنى، وفي هذه الحالة لما كان بوسعي أن أحيا بعد.

قال إدوار بهيئة حالمة:

– ربما أنت محقة.

رافقها في الأحد التالي إلى الكنيسة. غمس أصابعه في جرن الماء المقدس، ورسم شارة الصليب. وحين حدث القداس رتلو ورتل مع الآخرين أغنية دينية كان يتذكر لحنها على نحو غامض ومشوش، ويجهل كلماتها. لذلك قرر أن يستبدل الكلمات بأصوات متنوعة. أخذ يبدأ كل علامة متأخراً بجزء من الثانية لأنه لم يكن يعرف حتى هذا النغم. ولكنه عندما تأكد أنه يرتل بشكل صحيح انغمس في الاستمتاع بترنيم صوته لأنه تبين لتوه، وللمرة الأولى في حياته، أن لديه صوتاً جهورياً جميلاً. ثم رتلوا «أبانا» فركعت بعض

السيدات المسنات. لم يستطع أن يقاوم التجربة، فركع هو أيضاً على البلاط. راح يرسم شارة الصليب بحركات مبالغة، وأثناء ذلك، أحس بشعور عجيب حين راودته فكرة أنه استطاع أن يفعل شيئاً لم يفعله أبداً من قبل، لم يكن يسعه أن يفعله في الصف أو الشارع أو في أي مكان آخر، كان يشعر أنه حر على نحو عجيب.

عندما انتهى كل شيء، نظرت إليه أليس بعينين متقدتين وسألت:

– هل ما يزال بوسعك القول إنك تشك في وجوده؟.

قال إدوار:

– لا.

وقالت أليس :

– أود أن أعلمك كيف تحبه كما أحبه.

جلسا على الدرجات العريضة للفناء وروحه مفعمة بالمرح. ولسوء حظه، مرت المديرة قربهما في تلك اللحظة بالذات، ورأتهما.

3

كان هذا مزعجاً. يجب عليّ في الواقع أن أذكر – لأجل أولئك الذين يوشكون على نسيان الخلفية التاريخية– أن الكنائس لم تكن ممنوعة آنذاك، بيد أن التردد عليها لم يكن رغم ذلك بلا خطر.

ليس من الصعب فهم هذا الأمر: فأولئك الذين قاتلوا في سبيل ما سموه الثورة يحافظون على فخر فائق بها: ***الفخر لأنهم كانوا في الجانب الملائم على خط الجبهة.***

بعد ذلك بعشر سنوات أو أثني عشرة–وهي تقريباً الفترة التي حدثت فيها قصتنا– بدأ خط الجبهة بالتلاشي– ومعه الجانب الملائم والسيئ لهذا الخط.

فليس من المدهش إذاً أن يشعر أنصار الثورة القدماء بالإحباط ويبحثوا بلهفة عن جبهات *بديلة*، وبفضل الدين يمكنهم -في دورهم كملحدين يناضلون ضد المؤمنين- أن يجدوا أنفسهم من جديد في الجانب الملائم ويحافظوا بمغالاتهم المألوفة والأثيرة على رفعة شأنهم.

لكن، والحق يقال، كانت هذه الجبهة البديلة نعمة أيضاً على الآخرين الذين كانت أليس منهم، ولعله ليس من السابق للأوان إظهار ذلك. فمثلما كانت المديرة تريد أن تكون في الجانب */الملائم*، كانت أليس تريد أن تكون في الجانب */المعارض*. لقد أمم حانوت والدها خلال الأيام المسماة ثورية، وغدت أليس تكره أولئك الذين آذوه بهذه الطريقة السيئة. لكن كيف كان يسعها أن تظهر حقدها؟ هل كان عليها أن تتناول سكيناً وتنطلق للثأر لوالدها؟ ليست هذه هي العادة في بوهيميا. وكانت لدى أليس وسيلة أفضل للتعبير عن معارضتها: بدأت تؤمن بالله.

وبهذه الطريقة كان الله المعين يهب لنجدة الطرفين، وبفضله وقع إدوار بين نارين.

عندما جاءت المديرة في صبيحة يوم الاثنين، وصادفت إدوار في قاعة المدرسين، شعر بضيق شديد. في الحقيقة لم يكن بمقدوره أن يلجأ إلى الجو الودي

لمحادثتها الأولى، لأنه منذ ذلك اليوم-عن سذاجة أو إهمال- لم يستأنف مطلقاً مجرى حديثهما اللطيف. لذلك استطاعت المديرة أن تسأله على الملأ بابتسامة باردة:

- التقينا بالأمس، أليس كذلك؟.

قال إدوار:

- أجل، التقينا.

تابعت المديرة قائلة:

- لست أفهم كيف يمكن لشاب أن يذهب إلى الكنيسة ؟.

هز إدوار كتفيه بهيئة متضايقة، فهزت المديرة رأسها وهي تقول:

- شاب؟

قال إدوار بأسلوب اعتذار:

- ذهبت لزيارة فناء الكاتدرائية الباروكي.

قالت المديرة ساخرة:

- آه، هذه صحيح. لم أكن أعرف أنك تهتم بفن العمارة.

لم يرق هذا الحديث لإدوار البتة فتذكر أن أخاه دار

ثلاث مـرات حـول زميلتـه ثـم انطلـق مقهقهـاً قهقهـات صاخبة. كان يبدو أن الأحداث المزعجـة المألوفة تتكـرر، فـاعتراه الخـوف، هـاتف أليس يـوم السبت ليعتـذر منهـا وقال لها إنه لن يذهب إلى الكنسية لأنه أصيب بالبرد.

قالت له أليس بنبرة عتاب عندما التقيا في الأسـبوع التالي:

- إنك غض جداً.

راود إدوار شعوراً بأن كلمات الشابة تعوزهـا الرّقـة. لذلـك راح يكلمهـا -على نحـو غـامض ومضطـرب، لأنـه خجـل أن يفصـح عـن خوفـه ومبرراتـه الحقيقيـة- عـن المضايقات التي تعترضه في المدرسة وعن المديرة المرعبة التـي تضطهـده دون سـبب. كـان يريـد أن يوقـظ تعـاطف أليس، لكنها قالت له:

- أما أنا، فربة عملي لطيفة جداً.

وأخذت تروي، وهي تضحك، طرفاً عن عملهـا. راح إدوار يصغي إلى ثرثرتها المرحة وهو يزداد كآبة.

4

آنساتي سادتي، إنها أسابيع ألم! كان إدوار يشعر بشهوة جامحة حيال أليس. كان جسدها يثيره، وكان هذا الجسد منيعاً تماماً وكذلك كانت البيئة التي حدثت فيها لقاءاتهما مؤلمة: يتسكعان ساعة أو ساعتين على الطرق المعتمة، أو يذهبان إلى السينما؛ وكانت الرتابة والإمكانات الغزلية الضئيلة لهذين البديلين (لم تكن توجد بدائل أخرى) تحث إدوار على الاعتقاد بأنه لو أتيح له لقاء أليس في بيئة أخرى، لربما أحرز نجاحات أكثر أهمية قربها. لذلك اقترح عليها بهيئة ساذجة أن تذهب معه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الريف، عند أخيه الذي يملك شاليه بجانب الماء في واد مشجر.

صوّر لها بحماس الجمال الآسر للطبيعة، بيد أن أليس -التي لم تزل بسيطة وساذجة في ميادين أخرى- فهمت قصده من وراء ذلك ورفضت بقسوة. لأنه ليست أليس فقط هي التي تقاومه. بل إله أليس شخصياً، الحذر والمتيقظ أبداً.

كان هذا الإله يستمد كل جوهره من فكرة وحيدة حيث لا شهوات أخرى لديه، ولا آراء أخرى أيضاً. يحريم العلاقات الجنسية خارج الزواج. لذلك فهو إله متشدد جداً، لكن علينا ألا نسخر من أليس بسبب هذا. فمن الوصايا العشر التي بلّغها موسى إلى البشر، هناك تسع منها بالضبط لم تكن تعرض روحها لأي خطر، لأنه لم تكن تراود أليس أية رغبة بالقتل، أو تلويث شرف أبيها، أو الطمع بأزواج أقربائها؛ ثمة وصية وحيدة بدت أنها لا تسلم بها وشكلت بالنتيجة تحدياً حقيقياً: إنها الوصية السابعة، المشهورة بـ «لا تزن أبداً» وكي تكمل إيمانها الديني، وتظهره، وتبرهن عليه، كان لابد لها من أن تركز على تلك الوصية بالضبط، وعليها فحسب، جلّ اهتمامها. وعلى هذا النحو، صنعت من إله غامض وشائع ومجرد، إلهاً محدداً تماماً، واضحاً ومحسوساً: إله ضد الزاني.

بيد أني سأطرح عليكم هذا السؤال، أين يبدأ الزنى بالضبط؟ لقد أقامت كل امرأة هذا الحد وفق معايير غامضة تماماً. كانت أليس تسمح لإدوار أن يقبلها بسرور، وبعد محاولات كثيرة من جانبه، انتهت إلى السماح له بمداعبة نهديها، لكنها ظلت ترسم في وسط جسدها حد تخم منيع ومتعذر العبور، وتحت هذا الحد تمتد منطقة التحريمات المقدسة وتزمت موسى، والغضب الإلهي.

بدأ إدوار يقرأ الكتابَ المقدس ويدرس المؤلفات اللاهوتية؛ فقد قرر مواجهة أليس بأسلحتها ذاتها. وذات مرة قال لها:

– عزيزتي أليس، لا شيء محرم على من يحب الله. حين نشتهي شيئاً، نشتهيه بفضله. لم يكن المسيح يتمنى إلا أمراً واحداً، أن نهتدي بالحب.

قالت أليس:

– بلا شك، لكن ليس الحب الذي تظنه.

قال إدوار

– لا يوجد إلا حب واحد.

قالت أليس:

- هذا يلائمك، أليس كذلك؟ لكن الله وضع بعض الوصايا وعلينا أن نمتثل لها.

قال إدوار:

- أجل، إله العهد القديم، وليس إله المسيحيين.

ردت أليس:

- كيف؟ الإله واحد.

قال إدوار:

- أجل، لكن يهود العهد القديم لم يفهموا ذلك مثلنا بالضبط. قبل مجيء المسيح، كان على الإنسان أن يمتثل قبل كل شيء لمجموعة من الشرائع والوصايا الإلهية. ولم يكن مهماً جداً ما يحدث في روحه. أما المسيح فقد اعتبر كل هذه التحريات والأوامر بمثابة شيء خارجي. وما كان أكثر أهمية برأيه، هو الإنسان كما في قرارة نفسه. وابتداء من اللحظة التي يدرك فيها الإنسان فضيلة وجوده الورع والمؤمن، فإن كل ما يفعله حسن ويعجب الله. لهذا السبب قال القديس بول: «كل شيء طاهر بالنسبة لأولئك الطاهرين».

قالت أليس:

- بشرط أن يكونوا طاهرين.

استطرد إدوار:

- القديس أوغسطين قال: أحب الله وأفعل ما تريد. أتفهمين يا أليس؟ أحب الله وافعل ما تريد.

أجابت أليس:

- لكن ما تريده ليس هو ما أريده.

أدرك إدوار أن هجومه اللاهوتي هذه المرة أخفق تماماً؛ لذلك قال:

- أنت لا تحبينني.

قالت أليس بإيجاز شديد:

- بلى. ولهذا السبب لا أريد أن نقوم بشيء لا ينبغي علينا القيام به.

كما ذكرت سابقاً، كانت هذه الأسابيع أسابيع ألم. وكان الألم شديد الوطأة؛ لا سيما أن الشهوة التي يكنها إدوار لأليس ليست فقط شهوة جسد يشتهي جسداً آخر؛ على العكس فكلما صده هذا الجسد، كلما أصبح

حزيناً ومثيراً للعطف، وكلما ازدادت رغبته أيضاً بقلب الفتاة. بيد أن جسد أليس أو قلبها لم يهتما بحزنه، بل ظلا باردين ومنغلقين وراضين على نفسيهما.

أكثر ما كان يغيظ إدوار في أليس هو حذرها المتزن، مع أنه هو نفسه كان رزيناً جداً، وأخذ يحلم بعمل عظيم يستطيع به أن يخرج أليس من هذا الاتزان. ولما كان من الخطر جداً أن يثيرها عن طريق اعتداءات بواسطة السب والتجديف -اللذين تدفعه إليها طبيعته- فقد اضطر إلى اختيار تعديات مناهضة -أي أكثر صعوبة- تنبع من موقف أليس ذاته، إلا أنها كانت تصل بهذا الموقف إلى أقصاه بحيث تشعر بالخجل من تحفظها الفاتر. بمعنى آخر: أظهر إدوار ورعاً بالغاً. لم يفوت أي مناسبة للذهاب إلى الكنيسة -كانت شهوته لأليس أقوى من خوفه من السأم- وشرع ينقاد إلى ذلك بخضوع غريب. كان يركع لأوهى سبب، بينما أليس تتلو صلواتها وترسم شارة الصليب واقفة إلى جانبه، لأنها كانت تخشى أن تنزلق جواربها.

ذات يوم، لامها على فتور إيمانها. ذكرها بكلمات المسيح: «أولئك الذين يقولون لي: ربي.. لن يدخلوا جميعاً إلى ملكوت السماوات». قال لها إن إيمانها شكلي

وخارجي وهش. لامها على حياتها المريحة. لامها لأنها راضية جداً عن نفسها. لامها لأنها لا ترى شيئاً حولها إلا نفسها.

وفيما كان يتكلم -لم تتوقع أليس هذا الهجوم وراحت تدافع عن نفسها برخاوة- لمح تمثال المسيح المصلوب، وهو عبارة عن صليب برونزي قديم عليه مسيح من الصفيح الصدىء، ينتصب وسط الطريق. حرّر ذراعه بقسوة من ذراع أليس، وتوقف -كي يحتج على إهمال الشابة ويحدد بداية هجومه الجديد- ورسم شارة الصليب بمباهاة عدوانية. لكنه لم يستطع أن يتأكد من التأثير الذي أحدثته هذه الحركة على أليس، لأنه في تلك اللحظة بالذات، شاهد مستخدمة المدرسة على الرصيف الآخر وهي تنظر إليه. فأدرك إدوار أن أمره قد إنفضح.

5

تــأكدت مخاوفــه بعــد يومــين. عندمــا أوقفتــه المستخدمة في الممر وأخبرته بصوت جهوري وواضح أن عليه الحضور إلى مكتب المديرة ظهر اليوم التالي:

- نحن بحاجة لأن نتكلم معك أيها الرفيق.

شـعر إدوار بـالقلق. وفي المســاء، توجـه كعادتـه إلــى موعده مع أليس، ليتسكع معها في الشوارع، إلا أنه تخلـى عن ورعه الديني. كان محبطاً ويريد أن يخبر أليس بما حدث له، بيد أن الشجاعة لم تسعفه، لأنه يعرف أنه في سبيل المحافظة على عمله غير المحبـوب ، والضـروري سيخون الله بلا تردد. لذلك لم يقل شيئاً عن المحادثة المشؤومة، وبالمحصلة، لم يسعه أن ينتظر أية كلمة عـزاء.

وفي اليوم التالي، دخل إلى مكتب المديرة وهو يشعر بأنه وحيد تماماً.

كان أربعة قضاة ينتظرونه في الحجرة: المديرة، والمستخدمة، وزميل إدوار -رجل قصير ويضع نظارات- وسيد أشيب لم يكن إدوار يعرفه. كان الآخرون ينادونه الرفيق المفتش.

دعت المديرة إدوار إلى الجلوس وقالت له بعد ذلك إنهم استدعوه إلى محادثة في منتهى الودية وشبه رسمية، لأن جميع الرفاق مهتمون للغاية بالطريقة التي يتصرف بها إدوار خارج المدرسة. وفيما هي تقول ذلك، راحت تنظر إلى المفتش، والمفتش يهز رأسه بحركة موافقة. ثم التفتت إلى المدرس ذي النظارات الذي لم يكف عن النظر إليها بانتباه طوال ذلك الوقت، والذي ما إن فهم نظرتها حتى بدأ خطاباً مسهباً:

- إننا نريد أن نربي شبيبة سليمة ومنزهة عن الأحكام المسبقة، وأننا مسؤولين عن هذه الشبيبة لأننا نحن -المدرسون- بمثابة القدوة لها؛ لهذا السبب لا يمكننا أن نتسامح بوجود متدينين بيننا.

وعرض عرضاً مفصلاً هذه الفكرة. وانتهى إلى الإعلان بأن موقف إدوار هو فضيحة لكل المؤسسة.

قبل بضع دقائق، كان إدوار واثقاً من أنه سينكر

إلهـه المكتشـف حديثـاً وسـيعترف بـأن زيارتـه للكنيسـة، ورسـمه شـارة الصليب علـى المـلأ لـم تكـن سـوى تهريـج. لكنه شعر الآن، وهـو يرى الوضع أمامه، أنه من المستحيل أن يعترف بالحقيقـة؛ وعلـى كل حـال، لـم يكـن يسـعه أن يقول لهذه الشخصيات الأربع، الرصينة جداً، والمتحمسة أشد الحماس، إنها تشغل نفسها عن سوء فهم وحماقـة. كان يدرك أنه إذا قال لهم ذلـك، فلـن يقولـه إلا اسـتهزاء من حديثهم، ويـدرك أيضـاً أن هـؤلاء النـاس لا ينتظـرون منـه سـوى أعـذار واعتـذارات، وأنهـم مسـتعدون لـرفضهـا وأدرك بومضـة، -لأنـه لـم يكـن لديـه وقـت للتفكـير- أن الأكثر أهمية بالنسـبة لـه، في هـذه اللحظـة هـو أن يبقـى شـبيهاً بالحقيقـة أو، بدقـه أكـثر، شـبيهاً بـالفكرة التـي صنعها هؤلاء الناس عنه؛ وإذا أراد تصحيح هـذه الفكـرة إلى حد ما، فعليه أيضاً الإقرار بها إلى حد ما.

قال:

- أيها الرفاق، هل يمكنني أن أتكلم بصراحة؟.

قالت المديرة:

- طبعاً. لأجل هذا أنت هنا.

ولن تحقدوا علي؟.

ردت المديرة:

- قل ما لديك.

قال إدوار:

- حسن، سأعترف لكم بكل شيء، إنني أؤمن بالله حقاً.

رفع عينيه صوب قضاته واستطاع أن يتأكد أنهم يبدون ارتياحهم التام؛ وحدها المستخدمة صاحت به:

- اليوم أيها الرفيق؟ في عصرنا.

تابع إدوار قائلاً:

- كنت أعرف أنكم ستغضبون إذا قلت لكم الحقيقة. لكنني لا أعرف الكذب. لا تطلبوا مني أن أروي لكم أكاذيب.

قالت له المديرة برفق:

- لا أحد يطلب منك أن تكذب. إنك محق في قولك الحقيقة. لكن ما أريده هو أن تشرح لي كيف يمكن لشاب مثلك أن يؤمن بالله!.

زايد المدرس وهو مهتاج جداً:

- اليوم وفي هذا الوقت الذي نطلق فيه الصواريخ إلى القمر!!.

قال إدوار:

- لا حيلة لي في ذلك. لا أريد أن أؤمن بالله. حقاً لا أريد.

- كيف لا تريد، وتؤمن! .

تدخل السيد ذو الشعر الأشيب بنبرة فائقة اللطف.

كرر إدوار اعترافه بصوت خفيض :

- لا أريد الإيمان وأؤمن.

ضحك المدرس ذو النظارات وقال:

- لكن ثمة تناقض في ذلك!.

قال إدوار:

- أيها الرفاق، إنني أخبركم بالأمور كما هي. أعرف حق المعرفة أن الإيمان بالله يبعدنا عن الواقع.ماذا سيحدث للاشتراكية لو آمن كل الناس بأن الكون خاضع لسلطة الله؟ لن يفعل أحد شيئاً، وسيفوض كل إنسان أمره إلى الله.

أيدت المديرة قائلة:

- هذا صحيح تماماً.

أكد المدرس ذو النظارات:

- لم يبرهن أحد قط على وجود الله.

استطرد إدوار:

- الفرق بين تاريخ البشرية وما قبل تاريخها، هو أن الإنسان تحمل مسؤولية مصيره ولم يعد بحاجة إلى الله.

قالت المديرة:

- الإيمان بالله يقود إلى القدرية.

قال إدوار:

- الإيمان بالله هو بقية من القرون الوسطى.

بعد ذلك قالت المديرة من جديد شيئاً، ثم المدرس، ثم إدوار، ثم المفتش، كانت هذه الأفكار تتكامل بانسجام، بحيث أن المدرس ذو النظارات لم يعد يتمالك نفسه فبادر إلى مقاطعة إدوار:

- إذن، لماذا ترسم شارة الصليب في الشارع، مادمت تعرف كل هذا!؟

حدجه إدوار بنظرة حزينة للغاية وقال :

- لأنني أؤمن بالله.

كَرّرَ المدرس ذو النظارات مبتهجاً:

- لكن ثمة تناقض في ذلك!.

قال إدوار :

– أجل، ثمة تناقض بين المعرفة والإيمان. أعرف أن الإيمان بالله يفضي إلى الظلامية، وأعرف أنه من الأفضل ألا يوجد الله. لكن ماذا يسعني أن أفعل عندما أشعر هنا، في قرارة نفسي– أشار بإصبعه إلى قلبه وهو يقول ذلك ـ أنه موجود؟ أرجوكم أيها الرفاق، افهموني! فأنا أخبركم بالأمور كما هي، والأفضل أن أقول لكم الحقيقة؛ لا أريد أن أكون منافقاً، أريدكم أن تعرفوني كما أنا في الحقيقة.

طأطأ إدوار رأسه. كان لمدرس قصير النظر، فلم يكن يعرف أنه حتى الثوري الأشد قسوة لا يرى في الضعف إلا ضرورة سيئة، بينما *فضيلة* الثورة هي إعادة التربية. وهذا المدرس نفسه، الذي اهتدى إلى العقيدة الثورية بين ليلة وضحاها. لم يشعر أبداً باحترام للمديرة. ولم يخطر بباله أن إدوار الذي وضع نفسه تحت تصرف قضاته كموضوع شائك لكنه قابل لإعادة التربية، هو الآن أفضل منه بألف مرة. ولأن ذلك لم يخطر بباله، انصرفَ الآن إلى هجوم عنيف ضد إدوار، مؤكداً أن الرجال مثله، الذين لا يستطيعون أن يرفضوا الإيمان القروسطي، هم رجال من القرون الوسطى ولا مكان لهم في مدرسة حديثة. تركته المديرة ينهي كلامه وقالت منبهة:

– لا أحب أن نقطع الرؤوس. كان الرفيق صادقاً

وقال لنا الحقيقة. وهذا أمر علينا أن نحسب حسابه - التفت نحو إدوار - الرفاق محقون طبعاً في قولهم بأنه لا يمكن لمتدين أن يربي شبيبتنا لذلك أخبرني بنفسك بالذي تقترحه.

قال إدوار بهيئة يائسة:

- لا أدي، أيها الرفاق. لا أدري.

قال المفتش:

- هذا ما أفكر به، لا يحدث الصراع بين القديم والجديد بين الطبقات فقط بل وفي داخل كل فرد، وهذا ما نشهده في هذه المعركة لدى الرفيق. إنه يعرف، لكن عواطفه تسحبه إلى الخلف. علينا أن نساعد الرفيق كي يتغلب عقله عليها.

وافقت المديرة، ثم قالت:

- حسن جداً، سأهتم به شخصياً.

6

نجح إدوار إذن في إبعاد الخطر المباشر، وبات مستقبل مهنته كمدرس بين يدي المديرة حصراً، وهذا ما تأكد منه بارتياح في نهاية المطاف.

تذكر في الحقيقة ملاحظة أخيه الذي قال له إن المديرة لم تزل تميل للشبان، فقرر رغم كل تقلبات يقينه الشبابي، المفرط في يوم، والمقوّض بالشك في اليوم التالي، أن يخرج منتصراً من المحنة، وأن يكسب حظوة سيدته بوصفه رجلاً.

عندما ذهب إلى مكتب المديرة بعد عدة أيام كما هو مقرر، حاول أن يتكلم بنبرة مرحة، ولم يضيع أية فرصة ليدس في الحديث تعليقاً ودوداً او مديحاً لطيفاً

أو أن يشدد بتلميحات غامضة على فرادة حالته: حالة رجل تحت رحمة امرأة. لكن لم يتح له أن يختار بنفسه نبرة المحادثة. كلمته المديرة بلطف لكن بمنتهى التحفظ، فسألته عن الكتب التي يقرأها، وحددت هي نفسها عناوين كتب عديدة وأوصته بقراءتها لأنها كانت ترغب بوضوح أن تبدأ عملاً طويل النفس على ذهنه، وفي النهاية دعته لزيارتها في منزلها.

تغلب هذا التحفظ على اطمئنان إدوار المصطنع، فدلف إلى شقة المديرة منكساً رأسه ودون أية نية كي يغريها بسحره الرجولي. أجلسته على الأريكة وبدأت الحديث بنبرة ودية جداً، فسألته عما يرغب:

- ربما بفنجان قهوة؟.

فأجاب بالنفي.

- كحول إذن؟.

فشعر بالضيق وقال:

- إذ كان لديك كونياك.

وخشي على الفور أن يكون قد قال شيئاً غير لائق. لكن المديرة أجابت بلطف:

- لا، ليس لدي كونياك، كل ما لدي قليل من الخمر...

وأحضرت زجاجة مليئة حتى منتصفها، وبما يكفي لملئ كأسين بالضبط.

ومن ثم أوضحت لإدوار أنه ينبغي عليه ألا يعتبرها كمحقق. وإنه يحق لكل إنسان، بالطبع، أن يعتنق المعتقدات التي يحسب أنها صحيحة. ومن حقهم بداهة -أضافت على الفور- أن يتساءلوا هل سيشغل شخص آخر مكانه في التدريس أولا. ولهذا السبب رأوا من واجبهم دعوة إدوار -ولو على مضض- ومناقشته.

وقد ارتاحوا كثيراً -هي والمفتش على أية حال- لأنه كلمهم بصراحة ولم يحاول إنكار شيء. كانت قد تكلمت لفترة طويلة بعد ذلك مع المفتش عن إدوار وقرروا دعوته بعد ستة أشهر إلى محادثة جديدة، ومن الآن وحتى ذلك الحين، بات على المديرة أن تيسر تطوره بتأثيرها عليه. وشددت مجدداً على أن المساعدة التي تريد أن تقدمها لا يمكن أن تكون إلا *«مساعدة ودية»* وأنها ليست محققاً ولا شرطياً. تحدثت بعد ذلك عن المدرس الذي هاجم إدوار بقسوة وقالت:

- لديه متاعب هو الآخر، ومن دواعي سروره أن يتصيد الآخرين كما أن المستخدمة روت في كل مكان أنك كنت وقحاً وأنك بقيت مصراً على مواقفك. وتعتقد بأنه ينبغي طردك من المدرسة، وليس من وسيلة لحملها

على تعديل رأيها. بالطبع، أنا لا أتفق معها إلا أنه لا بد لي من أن أتفهم موقفها. ومن جهة أخرى فأنا أيضاً لا يروق لي كثيراً أن أعهد بأطفالي إلى معلم يرسم شارة الصليب على الملأ في الطريق..

بهذه الطريقة، راحت المديرة تشرح لإدوار، بسيل متواصل من الجمل، حدود تسامحها المغرية تارة، وحدود قسوتها المتوعدة تارة أخرى، وبعد ذلك، وكي تثبت أن لقاءهما هو لقاء ودي حقيقة، انتقلت إلى مواضيع أخرى: تكلمت عن الكتب واصطحبت إدوار إلى المكتبة، وتحدثت طويلاً عن *الروح المغتبطة* لرومان رولان وأغضبها أنه لم يقرأه. ثم سألته إن كانت المدرسة تعجبه، وبعد إجابة تقليدية، أخذت تتكلم بذلاقة لسان: قالت إنها كانت عارفة بمستقبل مهنتها، وأنها تحب عملها في المدرسة، لأنها بتعليمها الأطفال تحافظ على تماس صحيح ودائم مع المستقبل؛ ولأن المستقبل وحده يمكنه في نهاية المطاف أن يسوغ كل المعاناة الموجودة بوفرة من حولنا.

قال:

- لا... أجل، لابد من الاعتراف بذلك.

قالت:

- لو لم أكن أعتقد أنني أعيش في سبيل شيء

أعظم من حياتي الخاصة، لكنت بلا شك غير قادرة على الحياة.

وهي تتفوه بهذه الكلمات، بدت فجأة في غاية الصدق، ولم يتبين إدوار بوضوح إن كانت ترمي من وراء ذلك إلى أن تعترف أو أن تباشر مناظرة إيديولوجية حول معنى الحياة، فآثرت أن يرى في هذه الكلمات تلميحاً شخصياً وسأل بصوت مخنوق ورصين:

- وحياتك، في ذاتها؟.

كررت المديرة:

- حياتي؟.

- أجل، حياتك. ألا يسعها أن ترضيك؟.

ارتسمت ابتسامة مريرة على وجه المديرة، وكاد إدوار أن يشفق عليها. كان قبحها مؤثراً؛ فالشعر الأسود يؤطر الوجه المتطاول ذي العظام البارزة وللزغب الأسود تحت الأنف بروز شارب. أدرك فجأة سبب حزن حياتها برمته، ورأى القسمات التي تبدي شبقاً جامحاً،ورأى في الوقت ذاته القبح الذي يبدي استحالة إرواء هذا الجموح؛ راح يتخيلها كيف تحولت من الذهول إلى تمثال حي من الألم يوم موت ستالين، وكيف شهدت آلاف الاجتماعات بافتتان، وكيف ناضلت ضد يسوع البائس بحماس، وأدرك أن كل ذلك لم يكن سوى قناة تصريف

متواضعة لشهوتها التي لم يكن بمقدورها أن تجري كما تشاء. كان إدوار فتياً ولم يستنفذ قدرته على التعاطف بعد. أخذ ينظر إلى المديرة بتفهم. لكنها شعرت بالخجل من صمتها اللاإرادي، فقالت بصوت أرادته مرحاً:

- على كل حال، المشكلة ليست هنا يا إدوار. لا يعيش المرء من أجل نفسه. يعيش دوماً من أجل شيء آخر.

حدقت في عينيه بمنتهى العمق ثم أضافت:

- لكن القضية هي أن يعرف لأجل ماذا. أهو لأجل شيء واقعي أم خيالي. الله هو فكرة جميلة. بيد أن مستقبل الإنسان يا إدوار هو شيء واقعي. وفي سبيل هذا الواقع عشت وضحيت بكل شيء.

تفوهت هذه العبارات بمنتهى الثقة أيضاً إلى درجة أن إدوار ما انفك يحس بهذا الشعور المتفهم والمباغت الذي استيقظ فيه قبل لحظات، وبدا له أن من الحماقة أن يكذب بصفاقة على أي إنسان، وظن أن المظهر الحميمي جداً الذي اتخذته المحادثة منحه أخيراً الفرصة للتخلي عن خداعه غير اللائق -وفضلاً عن ذلك الصعب-. سارع إلى التأكيد قائلاً:

- لكنني متفق معك تماماً. أنا أيضاً أفضل الواقع.

أنت تعلمين أنه لا ينبغي أخذ إيماني على محمل الجد !.

بيد أنه اكتشف في الحال أن عليه ألا يدع نفسه يخطئ أبداً بسبب تقلب المشاعر المفاجئ. راحت المديرة تنظر إليه بهيئة مندهشة وقالت ببرود ظاهر:

– لا تنافق. ما أعجبني هو صراحتك. وها أنت الآن تحاول أن تتظاهر بما لا تكونه.

لا، لم يكن مسموحاً لإدوار أن يتخلص من القناع الديني الذي ارتداه من قبل، فخضع بسرعة وأرغم نفسه أن يحمي الانطباع السيئ الذي أعطاه للتو:

– لكن لا، لم أكن أريد أن أتهرب. بالتأكيد، أؤمن بالله، ولا يمكنني أن أنكر ذلك البتة. كنت أريد فقط أن أقول إنني أؤمن كذلك بمستقبل البشرية والتقدم وما إلى ذلك. لو لم أكن أؤمن بكل هذا، فما نفع عملي كمدرس، وما جدوى أن يولد الأطفال، وما جدوى كل حياتنا؟ وبالضبط، كنت أفكر أن تطور المجتمع هو أيضاً مشيئة الله. كنت أفكر أنه يمكن أن نؤمن بالله والشيوعية في آن معاً، وأن كليهما متوافقان.

قالت المديرة بسطوة أمومية تماماً:

– لا. الأمران ليسا متوافقين.

قال إدوار بحزن:

- أعرف. لا ينبغي أن تلومينني.

- لست ألومك. أنت ما تزال شاباً وتتمسك بعناد بما تعتقده. لا يمكن لأحد أن يفهمك مثلي. أنا أيضاً كنت شابة مثلك وأعرف ماذا يعني الشباب. وشبابك هو بالضبط فيك. إنك تجذبني.

حانت اللحظة أخيراً. لا قبل فوات الأوان ولا بعده، بل في أوانها بالضبط، في اللحظة المناسبة تماماً. (هذه اللحظة المناسبة كما تلاحظونها، لم يخترها إدوار، بل إن هذه اللحظة هي التي اختارت إدوار لتتحقق). عندما قالت المديرة إنها تجده جذاباً، أجاب بصوت معبر قليلاً:

- أنت أيضاً، أنت تجذبينني.

- حقاً؟.

- أجل.

ردت المديرة:

- دعك من هذا ! امرأة عجوز مثلي...

لم يستطع إدوار إلا أن يجيب:

- هذا ليس صحيحاً.

قالت المديرة.

- بلى صحيح.

لم يتمالك إدوار نفسه من أن يجيب باندفاع كبير:

- لست عجوزاً البتة. من الحماقة أن تقولي هذا.

- أتظن ذلك؟.

- بالتأكيد، فأنت تعجبينني كثيراً.

- لا تكذب. أنت تعرف أنه يجب عليك ألا تكذب.

- آنا لا أكذب. إنك جميلة.

سألت المديرة بتكشيرة متشككة:

- جميلة؟.

قال إدوار:

- أجل، جميلة.

وبما أنه كان يخشى التكذيب الفظ لهذا التأكيد، بادر إلى تدعيمه بالبراهين:

- السمراوات مثلك يعجبنني.

استفهمت المديرة:

- هل تحب السمراوات؟.

قال إدوار:

- بجنون.

– وكيف حدث أنك لم تأت لرؤيتي طوال فترة وجودك في المدرسة؟ كنت أشعر أنك تتجنبني.

قال إدوار:

– كنت متردداً. كان الجميع سيقولون إنني أتملقك. ولن يصدق أحد أنني آتي فقط لأراك، لأنك تعجبينني.

قالت المديرة:

– لم يعد هناك شيء تخشاه حالياً. قرروا الآن أن علينا أن نلتقي من حين لآخر.

راحت تنعم النظر في عينيه بقزحيتين بنيتين واسعتين (علينا أن نعرف أنهما لم تكونا من دون جمال). وحين ودعها، داعبت يده بلطف، بحيث أن هذا الطائش غادرها وهو مفعم بشعور الانتصار.

7

كان إدوار متأكداً من أن هذه القضية الشائكة تسير في صالحه، وفي يوم الأحد التالي توجه إلى الكنيسة بصحبة أليس وهو بحالة مرح فاضح؛ بالأحرى، استرد كل ثقته، لأن زيارته إلى منزل المديرة (حتى لو لم تثر هذه الفكرة فينا سوى ابتسامة مشفقة) زودته ببرهان ساطع على سحره الرجولي بالمقارنة مع ما مضى.

من جهة أخرى، بعد أن وصل إلى الكنيسة في ذلك الأحد، اكتشف أن أليس تغيرت: حين أصبحا سوية، تأبطت ذراعه ولم تعد تتركها ثانية، حتى في الكنيسة؛ وكانت في العادة تبدي حشمتها وتحفظها، غير أنها أخذت يومئذ تتلفت إلى جميع الاتجاهات وأومأت

برأسها وهي تبتسم لحوالي عشرة أشخاص من الأصدقاء والمعارف.

وكان هذا أمراً غريباً لإدوار ولم يفهم إدوار منه شيئاً.

بعد يومين، وبينما كانا يتنزهان في الشوارع المظلمة، اكتشف إدوار بدهشة أن قبلات أليس، المبتذلة بالعادة والفاترة، أصبحت فجأة رطبة ودافئة ومتحمسة. وعندما توقف معها مقابل مرآة عاكسة، شاهد عينين عاشقتين تنظران إليه. فقالت له أليس على حين غرة:

– أحبك، إن كنت تود أن تعرف ذلك.

أدهشه ما سمع فحاول أن يقول شيئاً لكنها أرغمته على الصمت في الحال.

–لا، لا، لا تقل شيئاً. أشعر بالخجل من نفسي. لا أريد أن أسمع شيئاً.

سارا بضع خطوات أخرى، ثم توقفا وقالت أليس:
– فهمت كل شيء الآن. فهمت لماذا كنت تلومني على فتوري.

لكن إدوار لم يفهم شيئاً وآثر أن يصمت؛ سارا بضع خطى أخرى وقالت أليس:

– لم تخبرني بشيء. لماذا لم تخبرني بشيء؟.

سأل إدوار:

– وماذا كنت تريدين أن أقول لك؟.

قالت بحماس هادئ:

– أجل، هذا هو أنت بالضبط. غيرك كان سيتبجح، أما أنت فلزمت الصمت. لكنني لهذا بالتحديد أحبك.

بدأ إدوار يفهم، ومع ذلك سأل:

– عما تتكلمين؟.

– عن الذي حدث لك.

– وكيف حدث أن عرفت؟.

– دعك من هذا! الجميع يعرف. لقد استدعوك وهددوك، فاستهزأت بهم. لم تنكر شيئاً. الجميع معجبون بك.

– لكنني لم أتكلم إلى أحد بأي شيء.

– لا تكن ساذجاً. أمر كهذا، يفصح عن نفسه بنفسه. فهو رغم كل شيء ليس أمراً تافهاً. أتظن أنه ما يزال يوجد اليوم شخص لديه شيء من الشجاعة؟

كان إدوار يعرف أن أقل حدث في مدينة صغيرة سرعان ما يتحول إلى أسطورة، لكن لم يخطر بباله أن أسطورة قد تولد حتى من مغامراته الخاصة الساخرة،

التي لم يبالغ أبداً في تقدير أهميتها؛ ولم يكن يدرك بوضوح كاف إلى أي مدى سيتحمل مواطنيه الذين يحبون الشهداء، كما يعرف كل واحد، لأن هؤلاء الشهداء يشجعونهم على استرخائهم اللذيذ مؤكدين لهم أن الحياة لا تهب إلا واحداً من اثنين: إما التحرر من الجلاد أو الطاعة المطلقة. ولم يشك أحد في أن إدوار قد تحرر من الجلاد وراح الجميع يشيعون النبأ بإعجاب وارتياح، بحيث أن إدوار صار يلغي نفسه الآن، على يد أليس، وجهاً لوجه مع الصورة الزاهية لحادثة صلبة شخصياً. تصرف ببرود وقال:

- بالتأكيد، أنا لم أنكر شيئاً. وأي إنسان آخر كان سيتصرف على هذا النحو.

صاحت أليس:

- أي إنسان؟ انظر حولك إلى الطريقة التي يتصرف بها الناس! إنهم جبناء! كانوا سينكرون أمهاتهم ذاتهن!.

سكت إدوار، وسكتت أليس أيضاً. كانا يمشيان ويداهما متشابكتان. قالت أليس بعد ذلك بصوت خفيض:

- سأفعل أي شيء في سبيلك.

إنها جملة لم يقل أحد لإدوار مثلها أبداً من قبل؛ تلك الجملة، هي هبة السماء. بالتأكيد، لم يكن إدوار يجهل أنها هبة لا يستحقها، لكن خطر بباله أن من حقه قبول الهبات التي لا يستحقها طالما منع عنه القدر الهبات التي يستحقها. قال:

- لم يعد بوسع أحد أن يفعل شيئاً لأجلي.

همست أليس:

- كيف هذا؟.

- سيطردونني من المدرسة، وأولئك الذين يتحدثون عني كأنني بطل لن يحركوا ساكناً لمساعدتي. إنني متأكد من أمر واحد فقط: سأكون وحيداً تماماً في نهاية المطاف.

قالت أليس هازة رأسها:

- لا.

قال إدوار :

- بلى.

كررت أليس وهي تصيح تقريباً:

- لا.

- الجميع تخلوا عني.

قالت أليس:

- لن أتخلى عنك أبداً.

قال إدوار بحزن:

- ستنتهين إلى التخلي عني أنت أيضاً.

قالت أليس:

- مطلقاً.

قال إدوار:

- لا يا أليس، أنت لا تحبينني. ولم تحبينني من قبل.

همست أليس:

- هذا ليس صحيحاً.

شعر إدوار بارتياح عندما شاهد عينيها تغرورقان بالدموع، ولكنه قال:

- لا يا أليس. تلك أمور يحس بها المرء. كنت دوماً باردة جداً معي. المرأة التي تحب لا تتصرف بهذه الطريقة. أعرف ذلك، والآن تشعرين بالتعاطف معي لأنك تعرفين أنهم يريدون تحطيمي. لكنك لا تحبينني ولا أريدك أن تحشري أوهاماً في رأسك.

كانا ما يزالان يمشيان، صامتين، ويداهما

متشابكتان. راحت آليس تبكي بصمت، لكنها توقفت فجأة وقالت في غمرة نحيبها:

- لا، هذا ليس صحيحاً. لا يحق لك أن تقول هذا. فهو غير صحيح.

قال إدوار:

- بلى.

وفيما كانت أليس تواصل بكاءها، اقترح عليها أن يذهبا إلى الريف يوم السبت التالي. فلدى أخيه شاليه على شاطئ النهر، في واد جميل، ويمكنهما المكوث فيه وحيدين.

كان وجه أليس قد تخضل بالدموع، فوافقت بصمت.

8

حدث ذلك يوم الثلاثاء، وعندما دعي إدوار من جديد إلى منزل المديرة يوم الخميس التالي، ذهب إليه باطمئنان مرح، لأنه كان واثقاً كل الثقة من أن سحر شخصيته سيحول حتماً قضية الكنيسة برمتها إلى سحابة دخان صغيرة. بيد أن ما يحدث دوماً في الحياة هو غير ما يظنه المرء حين يحسب أنه يمثل دوره في تمثيلية معينة، ولا يخطر بباله أنهم بدلوا الديكور سراً، بحيث صار يمثل مشهداً آخر دون أدنى شك.

جلس على الأريكة ذاتها، مقابل المديرة؛ كانت توجد بينهما طاولة واطئة وضعت عليها زجاجة كونياك مع كأسين من الجهتين. وهذه الزجاجة من الكونياك هي

بالضبط ذلك الديكور الجديد الذي يمكن لأي رجل حاد الذهن وهادئ أن يفهم منه مباشرة أن قضية الكنيسة لم تعد هي القضية المقصودة البتة.

لكن إدوار الساذج كان معتزاً بنفسه إلى حد أنه لم يفهم شيئاً في البداية. وانخرط في المحادثة التمهيدية بمرح (حول موضوع غامض وعام)، وعبّ القدح الذي قدمته له وتأسف بسذاجة على الناس. وبعد نصف ساعة أو ساعة،

حرفت المديرة المحادثة سراً نحو موضوعات شخصية جداً؛ فبدأت تتكلم عن نفسها لفترة طويلة، وكان لا بد لتلك الكلمات أن تبرز لإدوار الشخصية التي كانت تود لو تتسم بصفاتها: شخصية امرأة عاقلة، في سن النضج، ليست سعيدة كما ينبغي، لكنها فاضلة ومستكينة لقدرها، شخصية امرأة لا تتأسف على شيء، بل ويسرها أيضاً أنها لم تتزوج، لأنها لولا ذلك، لما كانت قد استطاعت بدون شك أن تتذوق تماماً نكهة استقلالها اليانعة، ومسرات حياتها الخاصة في شقة جميلة وصغيرة حيث كانت سعيدة وتمنت ألا يشعر إدوار بالضجر فيها.

قال إدوار:

- لا، أنا بخير هنا.

قال هذا بصوت خفيض، لأنه شعر بالضيق فجأة. فزجاجة الكونياك التي طلبها عن طيش منذ زيارته الأولى والتي بدت على الطاولة بمثابة وعيد عاجل، والجدران الأربعة للشقة التي تحدد مكاناً ضيقاً، ومغلقاً بصورة متزايدة، ومونولوج المديرة التي تتطرق إلى موضوعات شخصية آكثر فأكثر ونظرتها المركزة عليه بطريقة خطرة، كل هذا جعله يدرك وريداً رويداً تبدل البرنامج؛ فهم أنه وضع في موقف سيتطور على نحو حتمي؛ وبدا له بوضوح أن ما يعرض مهنته للخطر، ليس كره المديرة له، بل على العكس، النفور الجسدي الذي يشعر به حيال هذه المرأة الناحلة التي لها زغب تحت الأنف والتي تشجعه على الشراب. وصار يشعر بغصة في حلقه.

أطاع المديرة وعبّ قدحه، لكن القلق بات الآن قوياً إلى حد أن الكحول لم يعد يؤثر فيه. بالمقابل، تخلت المديرة التي شربت للتو أقداحاً عديدة عن تحفظها المعتاد نهائياً، وأصبحت كلماتها محملة بإثارة شبه متوعدة: راحت تقول:

- هناك شيء أريده منك، إنها فتوتك. لا يسعك بعد أن تعرف ما هي خيبة الأمل وزوال الوهم. وأنت لم تزل ترى الناس بألوان الأمل والجمال.

أمالت وجهها نحو وجه إدوار، ومن فوق الطاولة الواطئة، وفي صمت كئيب، مع ابتسامة متخمرة أنعمت النظر فيه بعينين محدقتين على نحو مخيف، أما هو في هذه الأثناء، فقد طفق يحدث نفسه بأنه إذا لم يفلح في الثمل قليلاً، فإن الأمسية ستنتهي بالنسبة له إلى عجز جنسي مخيف؛ صب الكونياك في كأسه وعبّ منه جرعة كبيرة بسرعة. بينما استطردت المديرة:

- لكني أريد أن أرى ذلك بالألوان ذاتها، بالألوان ذاتها التي تراها بها!.

ثم نهضت عن أريكتها، بهيئة تفاخر وقالت:

- هل صحيح أنني أجذبك؟ أهذا صحيح؟.

دارت حول الطاولة وجذبت إدوار من كمه:

- أهذا صحيح؟.

قال إدوار:

- أجل.

قالت:

- هيا إذن، لنرقص.

تركت يد إدوار ووثبت نحو مفتاح المذياع الذي عالجته بيدها حتى وجدت موسيقا للرقص. ثم وقفت

مبتسمة أمام إدوار.

نهض إدوار، وأمسك المديرة وراقصها عبر الحجرة على إيقاع الموسيقا. كانت المديرة تضع رأسها على كتفه برفق، ثم ترفعه فجأة لتنظر في عيني إدوار، وتدندن اللحن بصوت خفيض.

كان إدوار متكدراً جداً إلى حد أنه ترك المديرة مرات عديدة كي يشرب. لم يكن به من الشهوة الجامحة أكثر من رغبته بأن يضع حداً لرعب هذا التيه اللامتناهي، وفي الوقت ذاته، أخذ يخشى من هذه النهاية، لأن الرعب الذي سيعقبها بداله أسوأ أيضاً. لهذا استمر في مراقصة السيدة التي تدندن عبر الحجرة الضيقة، وأثناء ذلك، راح يترصد - بنفاذ صبر قلق - التأثير المطلوب للكحول. عندما شعر أخيراً أن حواسه تشوشت قليلاً من ثمل الكونياك، ضم المديرة إلى جسده بيد، ووضع يده الأخرى على صدرها.

أجل، لقد أقدم للتو على الحركة التي ارتعب منذ بداية السهرة من مجرد فكرتها؛ ولا أعرف بماذا كان عليه أن يضحي لئلا يضطر إلى القيام بذلك الفعل، ولكنه، ورغم كل شيء - صدقوني - فقد فعله لأنه كان مرغماً على فعله حقاً. فالوضع الذي تاه فيه منذ بداية السهرة لم يقدم له أي مهرب؛ كان بوسعه دون شك أن

يبطئ مجراه، لكن كان من المستحيل إيقافه، وحتى حين وضع إدوار يده على نهد المديرة، إنما كان يذعن لمتطلبات ضرورة لا مناص منها.

لكن نتائج حركتة جاوزت كل التوقعات. وكما بضربة عصا سحرية، بدأت المديرة تتلوى بين ذراعيه، ثم ضغطت شفتها العليا المكسوة بالشعر على فمه. ثم دفعته إلى الأريكة، وبحركات مرتعشة وتنهدات عميقة، عضت شفته السفلى وطرف لسانه، وهو ما سبب ألماً كبيراً لإدوار. بعد ذلك فرت من بين ذراعيه، وقالت له «انتظر!» وركضت إلى الحمام.

لعق إدوار إصبعه وتأكد أن لسانه ينزف قليلاً. كانت العضة مؤلمة إلى درجة أن الثمل الذي توصل إليه بعناء قد تلاشى إلى حد أنه أخذ يشعر من جديد بحلقه يغص عند التفكير بما ينتظره. كان صوت الماء المنبعث من الحمام يبلغ مسامعه. أمسك زجاجة الكونياك، وضعها على شفتيه، وعب جرعة مديدة.

لكن المديرة ظهرت مجدداً على الباب، مرتدية قميص نوم شفاف - تزين الدنتيلا صدره - أخذت تتقدم ببطء نحو إدوار. احتضنته بين ذراعيها. ثم ابتعدت وقالت له مؤنبة:

- لمَ لم تخلع ملابسك؟.

خلع إدوار سترته، وهو ينظر إلى المديرة التي سمرت عينيها النجلاوين عليه. لم يكن بمقدوره أن يفكر إلا بأمر واحد، أن جسده سيعرقل على الأرجح جهود إرادته. لهذا السبب فقط حرص على إثارة شهوته، فقال بصوت متهدج:

- اخلعي ملابسك كاملة.

وبحركة مباغتة مفعمة بإذعان مثير، خلعت قميص النوم كاشفة عن شبح هزيل أبيض ينسدل شعره الأسود الكث بإهمال مغم. اقتربت منه المديرة ببطء وفهم إدوار بذعر ما سبق أن تنبأ به على كل حال: فقد شل القلق جسده تماماً.

أعرف يا سادة أنكم اعتدتم بتوالي السنين على هذه التمردات العابرة لجسدكم، وأن ذلك لا يقلقكم البتة. لكن هل فهمتم؟ كان إدوار شاباً آنذاك! وكان اضطراب جسده يقذفه في كل مرة إلى ذعر لا يصدق، وكان يعتبر ذلك بمثابة ندبة لا تمحى، سواء حدث ذلك إزاء وجه جميل أو هيئة قبيحة مضحكة، كهيئة المديرة. ولما أصبحت المديرة على بعد خطوة واحدة فقط منه، قال فجأة وهو مذعور ودون أن يدري ماذا يفعل، وحتى دون أن يعرف لماذا (كان هذا نتيجة اندفاع أكثر من أنه نتيجة مبادرة متعقلة):

- لا، لا! يـا إلهـي، لا! هـذه معصيـة.ستكون معصية!.

وأبتعـد بقفـزة. لكـن المديـرة أخـذت تقـترب منـه وتتمتم:

- لماذا معصية؟ لا توجد أية معصية!.

التجـأ إدوار إلـى وراء الطاولـة التـي كانـا جالسـين حولها قبل لحظات:

- لا، ليس لي الحق، لا يحق لي أن...

أبعدت المديرة الكرسي الذي يعيق مرورها، وتـابعت الاقتراب مـن إدوار دون أن تزيـح عنـه عينيهـا النجلاويـن والسوداوين وهي تردد:

- لا توجد معصية! لا توجد معصية!...

دار إدوار حول الطاولة، ولم يعد يوجـد خلفـه سـوى الأريكة؛ صارت المديرة قريبـة جـداً منـه. لـم يعـد بوسـعه الفرار؛ إن هذا اليأس الفائق هو الذي جعله يأمر المديرة في هذه اللحظة التي لا مناص منها:

- على ركبتيك ! على ركبتيك!.

نظرت إليه دون أن تفهم، لكنـه عندمـا كـرّر بصـوت يائس وحازم:

- على ركبتيك.

جثت أمامه بحماس واحتضنت ساقيه. فصرخ:

- اتركيني. ضمي يديك!.

نظرت إليه من جديد دون أن تفهم.

- ضمي يديك! ألا تسمعين؟.

وما أن ضمت يديها حتى أمرها قائلاً :

- صلي!.

كانت يداها مضمومتين وترنو إليه بعينين ورعتين.

صرخ:

- صلي! لكي يغفر الله لنا!.

أخذت تنظر إليه بعينيها النجلاوين والذهول يسيطر عليها تماماً ويداها ما تزالان مضمومتين، في حين أن إدوار بدأ يفقد شعوره المرهق بأنه ليس إلا فريسة فاستعاد اطمئنانه، علاوة على أنه كسب وقتاً ثميناً فأخذ يتفحص هذه الوضعية لجسدها من عل. وابتعد قليلاً حتى يراها كاملة. وكرر مرة أخرى أمره:

-صلي!.

وفيما ظلت صامتة ومذهولة، صرخ فيها بصوت

مرتفع!

- صلي!.

وبالفعل، أخذت السيدة الجاثية، الناحلة والعارية، ترتل: «أبانا الذي في السماوات، أبانا الذي تقدس اسمك، الذي ملكك...».

وهي تتلفظ كلمات الصلاة، كانت ترنو ببصرها نحوه كأنه هو نفسه الله. أخذ يراقبها بمتعة متزايدة: ها هي المديرة أمامه، جاثية على ركبتيها ويهينها مرؤوس؛ هاهي أمامه، الثورية العارية تهينها الصلاة؛ هاهي أمامه، امرأة تصلي ويهينها العري.

كانت هذه الصورة المثلثة الوجوه للإهانة تثيره. وحدث أمر مفاجئ: انتهى جسده من مقاومته السلبية؛ وأثير إدوار! ولما قالت المديرة: «لكن لا ترغمنا على الإغراء» تخلص بسرعة من كل ملابسه.

وعندما قالت: «آمين» أنهضها بعنف وجرها إلى الأريكة.

9

ذلك ما حدث إذن يوم الخميس. وفي يوم السبت اصطحب إدوار أليس إلى منزل أخيه في الريف. استقبلهما أخوه بترحاب، وأعارهما مفتاح الشاليه.

ذهب العاشقان يتنزهان. وأمضيا طوال فترة ما بعد الظهر في الغابات والمروج. وعندما راحا يتعانقان أتيح لإدوار أن يتأكد بيديه المسرورتين من أن الخط الوهمي المرسوم فوق السرة والذي يفصل منطقة البراءة عن منطقة الزنا قد فقد كل قيمة. كانت رغبته الأولى هي أن يثبت بواسطة الكلمات هذه الواقعة التي انتظرها زمناً طويلاً، إلا أنه تردد وأدرك أنه من الأفضل له أن يسكت.

لا ريب أنه كان في غاية التنبه: في الحقيقة، لم يكن لتغير موقف أليس المفاجئ أية علاقة بالجهد الذي كان إدوار يبذله منذ أسابيع لإقناعها، ولم يكن لديه أية علاقة بحجج إدوار *العقلية*. على العكس، استند تغير موقفها إلى خبر تضحية إدوار حصراً، أي استند إلى *خطأ*، وحتى بين هذا الخطأ والنتيجة التي استخلصتها أليس، لم تكن توجد أية علاقة *منطقية*، لذلك علينا أن نفكر للحظة بهذا السؤال: لماذا ترتب على واقعة بقاء إدوار وفياً لمعتقده حتى الشهادة أن تحرض أليس على خرق القانون الإلهي؟ أكان ينبغي عليها أن تخون الله أمام إدوار لأن إدوار رفض أن يخونه أمام لجنة التحقيق؟.

في هذه الظروف، كان أدنى تفكير بصوت عال يوشك أن يظهر لأليس تهافت موقفه. لذلك أحسن إدوار صنعاً بسكوته. ولم يلفت صمته الانتباه البتة، لأن أليس تكلمت أيضاً بما يكفي وكانت فرحة ولا شيء أشار إلى التبدل المفاجئ الذي طرأ على روحها أكان مأساوياً أو مؤلماً.

عندما أقبل الليل، عادا إلى الشاليه، أضاء النور، فتحا السرير، تعانقا، وطلبت أليس من إدوار أن يطفئ

المصباح. لكن وبما أن النافذة سمحت لغبش الليل بالتسلل، اضطر إدوار تلبية لرغبة أليس أن يغلق مصراعيها أيضاً. وفي هذا الظلام الحالك، تعرت أليس ومنحت نفسها له.

لقد انتظر هذه اللحظات أسابيع كثيرة، والأمر الغريب، أنها الآن وقد تحققت أخيراً، لم تكافئ أهميتها إطلاقاً مدة انتظاره؛ فقد بدت ممارسة الجنس، على العكس، سهلة جداً وطبيعية إلى درجة أن إدوار كاد يسهو عنها وإلى حد أنه حاول حقاً أن يطرد الأفكار التي مرت في رأسه: حين راح يتذكر تلك الأسابيع الطويلة والعابثة التي عذبته أليس خلالها ببرودها، وكل المتاعب التي سببتها له في المدرسة، وبدل أن يمتن لها لأنها منحت نفسها له، شعر بنوع من الحقد الانتقامي. اغتاظ لأنها خانت، بمنتهى اليسر، ودون تبكيت ضمير، إلهها المعادي للزاني الذي كانت تضمر له من قبل إجلالاً متزمتاً؛ اغتاظ لأن أي شهوة أو حادثة أو اضطراب لم يستطع أن يعكر صفاءها؛ اغتاظ لأنها عاشت كل هذا دون تمزق داخلي، واثقة من نفسها وبيسر. وعندما أصبح تحت سيطرة هذا الغيظ، حاول أن يضاجعها بعنف وغضب، لكي ينتزع منها صيحة أو تأوهاً، أو كلمة،

تأوهاً، أو كلمة، أو أنيناً، إلا أنه لم يفلح في ذلك. كانت الفتاة خرساء وبالرغم من كل مساعي إدوار انتهى عناقهما بتواضع وصمت.

بعد ذلك، التصقت بصدره ونامت بسرعة، بينما بقي إدوار مستيقظاً لوقت طويل، وتبين أنه لم يشعر بأي فرح. أخذ يحاول أن يتصور أليس – ليس مظهرها الجسدي، بل وجودها في جوهره ما استطاع إلى ذلك سبيلا – وأدرك فجأة أنه لم يراها إلا *مشتتة*.

لنتوقف لحظة عند هذه الكلمة: أليس كما بدت له حتى الآن، هي في نظره، رغم سذاجتها، كانت كائن حازم ذو تقاطيع مرسومة بمهارة: فبساطة جسدها بدت منسجمة مع البساطة الأولية لإيمانها، وبساطة قدرها بدت هي السبب في موقفها. كان إدوار قد اعتبرها حتى ذلك الحين متماسكة ومتسقة: رغم أنه سخر منها وأزعجها وخدعها بحيلة، إلا أنه لم يسعه إلا أن يحترمها «رغماً عنه».

لكن هاهو فخ النبأ الكاذب – هذا الفخ الذي لم يكن قد هيأ له – قد أخذ يحطم اتساق هذه الشخصية وراح إدوار يقول في سره إن أفكار أليس، لم تكن في الحقيقة سوى شيئاً *ملصوقاً* على مصيرها، وأن

مصيرها ليس إلا شيئاً ملصوقاً على جسدها، ولم يعد يرى فيها إلا تجميعاً مصادفاً للجسد والأفكار والسيرة، تجميعاً لا عضوياً، تعسفياً وقابلاً للتفتت. أخذ يتصور أليس – التي تتنفس بعمق على كتفه – فرأى جسدها من جهة وأفكارها من جهة أخرى، رأى أن هذا الجسد يعجبه، وتبين أن تلك الأفكار تبدو له مضحكة، لم يكن هذا الجسد وتلك الأفكار يشكلان أية وحدة، وبات يراها كخط امتصته رقعة ورقة نشاف: دون تقاطيع وبلا شكل. أجل، أعجبه هذا الجسد حقاً.

عندما نهضت أليس صباح اليوم التالي، أرغمها على البقاء عارية، وهاهي الآن تنسى حياءها مع أنها هي التي ألحت عشية أمس على إغلاق مصراعي النافذة لأن ضياء النجوم الشاحب يضايقها. أخذ إدوار يتفحصها حين راحت تتقافز فرحة، وهي تبحث عن علبه الشاي والبسكويت من أجل الإفطار. وتبينت بعد لحظة أنه يبدو مهموماً. سألته عما دهاه. أجابها أن عليه أن يذهب لرؤية أخيه بعد الإفطار.

حين سأله أخوه كيف تسير الأمور في المدرسة، قال إدوار إنها تسير على ما يرام، فقال له أخوه:

- تلك السيشاكوفا قذرة، لكنني غفرت لها منذ زمن طويل. غفرت لها لأنها لم تكن تدري ما تفعل. كانت ترمي إلى إيذائي، إلا أنني أصبحت سعيداً بفضلها. أكسب معيشتي على نحو أفضل كمزارع وينقذني الاتصال مع الطبيعة من الشك الذي يستسلم له سكان المدن.

قال إدوار بهيئة متأملة:

- أنا أيضاً، تلك المرأة المسنة جلبت لي الحظ.

وحكى لأخيه أنه وقع في غرام أليس وأنه تظاهر بالإيمان بالله، وأنه اضطر للمثول أمام لجنة، وأن تلك السيشاكوفا أرادت إعادة تربيته، وأن أليس منحته نفسها في نهاية المطاف، معتبرة إياه شهيداً. لكنه لم يحك حتى النهاية كيف أرغم المديرة على تلاوة صلاة *أبانا*، لأنه اعتقد أنه لمح لوماً في عيني أخيه. سكت فقال له أخوه:

- لدي بلا شك عيوب، لكنني واثق من أمر واحد. لم أخاتل أبداً وقلت دوماً للناس ما أفكر به وجهاً لوجه.

كان إدوار يحب أخاه كثيراً وكان استهجانه يهينه. أراد أن يبرئ نفسه، فشرعا يتجادلان. قال إدوار في النهاية:

- أعلم أنك كنت دوماً رجلاً نزيهاً وأنك فخور بذلك. لكن أطرح على نفسك السؤال التالي: *لماذا* نقول الحقيقة؟ ما الذي يضطرنا إلى ذلك؟ ولماذا يجب اعتبار الصدق بمثابة فضيلة؟ افرض أنك تقابل مجنوناً يؤكد أنه سمكة وأننا كلنا أسماك. هل ستتجادل معه؟ وهل ستخلع ملابسك أمامه لتبرهن له أن ليست لك زعانف؟ هل ستقول له وجهاً لوجه ما تفكر فيه؟ هيا، اخبرني!.

ظل أخوه ساكتاً، فاستطرد إدوار:

- إذا لم تقل له إلا الحقيقة، وإلا ما تفكر به حقاً حياله، فهذا يعني أنك راض عن خوض نقاش جاد مع مجنون، وأنك أنت أيضاً مجنون. هذا هو واقع الحال بالضبط مع الناس الذين يحيطون بنا. وإذا كنت مصراً على أن تقول له الحقيقة وجهاً لوجه، فهذا يعني أنك تأخذه على محمل الجد. وإذا أخذت على محمل الجد أمراً ضئيل الجدية إلى هذا الحد، فهذا بحد ذاته يفقده كل جديته. وأنا، يجب علي أن أكذب حتى لا آخذ على محمل الجد المجانيين ولئلا أغدو أنا أيضاً مجنوناً.

10

انتهى يوم الأحد واتخذ العاشقان طريق العودة؛ كانا وحيدين في المقصورة (عاودت الفتاة ثرثرتها بفرح) وراح إدوار يتذكر كيف ظل مبتهجاً حتى فترة قريبة جداً لفكرة أنه استطاع أن يعثر في شخصية أليس الاختيارية على جدية لم يكن يتوقع أن تحصل له أبداً، وأدرك بحزن (العجلات تضرب برتابة على مفاصل السكة) أن المغامرة الغرامية التي عاشها للتو مع أليس كانت ساخرة ومصنوعة من المصادفات والأخطاء، ومحرومة من الجدية والمعنى؛ أخذ يصغي إلى كلمات أليس، ويراقب تصرفاتها (كانت تضغط على يده)، وطفق يحدث نفسه بأنه ليس لهذه الحركات معنى، وأنها عبارة عن أوراق نقدية دون رصيد، وأثقال من الورق، ليس بوسعه أن

يمنحها من القيمة أكثر مما يسع الله أن يمنح صلاة المديرة وهي عارية؛ ثم قال في سره فجأة إن كل الناس الذين عاشرهم في هذه المدينة لم يكونوا في الواقع سوى أسطر ممتصة على رقعة من ورق النشاف، وكائنات ذات مواقف قابلة للتبادل، ومخلوقات دون جوهر راسخ؛ لكن ما كان سيئاً، جداً – حدث نفسه بعد ذلك – هو أنه لم يكن هو نفسه سوى ظل لكل تلك الشخصيات العاتمة، لأنه كان يستنفذ كل مصادر ذكائه لهدف وحيد هو أن يتوافق معهم ويقلدهم، ورغم أنه كان يقلدهم وهو يضحك في سره، دون أن يأخذهم على محمل الجد، ومع أنه حاول بذلك أن يسخر منهم خفية، وأن يبرهن بهذه الطريقة على سعيه للتكيف. فإن ذلك لم يبدل شيئاً، لأن التقليد، حتى عن سوء نية، يظل تقليداً، وحتى الظل الذي يضحك هازئاً، يظل ظلاً، وشيئاً آخر، و يدعو للرثاء.

إنه أمر مخز، مخز على نحو مخيف. ما زالت العجلات تضرب على مفاصل السكة برتابة. ولم تزل الفتاة تثرثر. فقال إدوار:

– هل أنت سعيدة يا أليس؟.

قالت أليس :

– أجل.

قال إدوار:

– أما أنا. فإني حزين.

قالت أليس:

- هل أنت مجنون؟.

- ما كان يجب علينا أن نفعل ذلك. ما كان ينبغي أن...

- ماذا دهاك؟ أنت الذي أردت ذلك!.

قال إدوار:

- أجل، لكن... هذه هي خطيئتي الكبيرة التي لن يغفرها الله لي. إنها معصية يا أليس.

قالت الفتاة بهدوء:

- أرجوك، ما الذي يحدث لك؟ أنت نفسك لم تفتأ تردد أن الله يريد الحب، وبادئ ذي الحب!.

عندما تأكد إدوار أن أليس انتحلت بالتدريج السفسطائية الدينية التي ظلت حتى وقت قريب مغيثاً ضعيفاً جداً له في معركته الصعبة، احتد غيظاً:

- قلت لك ذلك لأختبرك. أعرف الآن مقدار وفاءك لله! لكن المرأة القادرة على خيانة الله، قادرة على أن تخون رجلاً أضعافاً مضاعفة!.

لم تزل أليس تلتمس إجابات جديدة، جاهزة سلفاً، إلا أنها لو تنبهت جيداً لما التمستها، لأن تلك الإجابات

ما انفكت تؤجج غضب إدوار الانتقامي.

تكلم إدوار طويلاً ولم يزل يتكلم. استخدم كلمات الاشمئزاز والتقزز الجسدي حتى انتهى إلى أن ينتزع من هذا الوجه الوادع والحنون - أخيراً! - نحيباً ودموعاً ونواحاً.

قال لها في المحطة: «وداعاً» وتركها تبكي. وعندما عاد إلى منزله - وهو ما لم يحدث إلا بعد ساعات عديدة - وعندما سكن ذلك الغضب الغريب أخيراً، أدرك كل النتائج المترتبة على ما فعله للتو: راح يتصور ذلك الجسد الذي ظل حتى الصباح يتقافز أمامه عارياً تماماً، وحين قال في سره بأنه هو ذاته، وعن عمد قد طرد ذلك الجسد الجميل، وصف نفسه بالأحمق، واعترته رغبة بأن يصفع نفسه.

لكن ما حدث قد حدث، ولم يعد بوسع أحد أن يغيّر في الأمر شيئاً.

لا بد لي أن أضيف، من جهة أخرى، وفاءً للحقيقة، أنه إن كان ذلك الجسد الجميل الذي فرّ من إدوار قد سبب له شيئاً من الحزن، فتلك خسارة سرعان ما أذعن لها. لقد عانى بعيد وصوله إلى المدينة الصغيرة من نقص في العلاقات الجنسية، إلا أنه كان نقصاً مؤقتاً. ولم يترتب على إدوار أن يعاني منه كثيراً، لأنه صار يذهب مرة في الأسبوع لرؤية المديرة - كانت العادة قد

حررت جسده من مخاوف البداية - وقرر أن يذهب إلى منزلها بانتظام ما دامت الأمور لم تتجل في المدرسة بشكل نهائي. وفوق ذلك، ظل يجرب بنجاح متزايد أن يغري نساء وفتيات عديدات. وما حدث هو أنه استمتع كثيراً باللحظات التي ألفى نفسه فيها وحيداً، وأخذ يحب النزهات الفردية التي كان يستفيد منها أحياناً - تكرموا بتركيز بعض الانتباه أيضاً لهذا الأمر الثانوي- ليقوم بجولة في الكنيسة.

لا، اطمئنوا، فإدوار لم يعرف الإيمان. ولا أنوي أن أتوج حكايتي بتناقض صارخ إلى هذا الحد. لكن إدوار ظل يقلب في رأسه بسرور وحنين فكرة الله وهو شبه واثق بأن الله غير موجود.

الله هو الجوهر بالذات، بينما إدوار، وبعد مضي سنوات عديدة على مغامراته مع أليس والمديرة لم يصادف قط شيئاً جوهرياً، لا في غرامياته ،ولا في مهنته، ولا في أفكاره.

إنه أشرف من أن يرضى بأن يجد الجوهري في غير الجوهري، إلا أنه أضعف من أن لا يتوق إلى الجوهر بشكل سري.

آه، آنساتي وسادتي، ما أتعس حياة المرء حين لا يستطيع أن يأخذ شيئاً على محمل الجد، ولا حتى أحداً!

لهذا السبب يشعر إدوار بتوق إلى الله، لأن الله فقط أعفي من واجب الظهور، ويمكنه أن يكتفي بالكينونة، لأنه هو وحده، وحيد وغير موجود.

أما التناقض الجوهري في هذا العالم فإنه ينشأ من الموجود الذي هو غير جوهري.

أصبح إدوار يأتي من حين لآخر ليجلس في الكنيسة، ويرنو بعينين حالمتين إلى القبة، وها هو الآن، في فترة ما بعد الظهر، والكنيسة هادئة وخالية يجلس على مقعد خشبي، ويشعر بالحزن لفكرة أن الله غير مرئي، لكن حزنه أخذ يكبر في هذه اللحظة بالذات إلى حد أنه يرى وجه الله الحقيقي، والنابض بالحياة ينبثق من أعماقه.

انظروا؛ هذا صحيح. إدوار يبتسم! إنه يبتسم وابتسامة سعيدة.

والآن سنودعه وننصرف، ولكن من فضلكم، أبقوه في ذاكرتكم مع هذه الابتسامة.

كتبت في بوهيميا

بين 1959 و 1968



دار آرام للثقافة والكتب
دمشق - هـ 6316870 - 6816234
تلفاكس 6316870. ص.ب 36130